"المباحِثُ الأصْلِيَّةُ" لابن البَنَّا السَّرَقُسْطِي

مدخل

بسم الإله في الأمور أبدأ | إذ هو غاية لها ومبدأ
الحمد لله ولي الحمد | هدى إلى الحق ونهج الرشد
ثم صلاة الله والسلام | على النبي ما انجلا الظلام
يا سائلا عن سنن الفقير | سألت ما عز عن التحرير
إن الذي سألت عنه مات | وصار بعد أعظما رفات
فطمست أعلامه تحقيقاً | فلم تجد بعد لها طريقاً
إلا رسوماً ربما لم تعفُ | وذاك ما نتبعه ونقفُ
وهبْكَ أن تظفر بالأوطان | ما السر والمعنى سوى القُطّانُ
وهذه مسألة معتاصة | لم يجد الحبر لها خلاصة
لأنها مسألة غريبة | حقيقة الجواب عنها ريبة
وقلَّما تلقى لها مساعدا | بل منكراً أو ناقداً أو جاحداً
وإذ تهديت إلى الصواب | ولم يكن بد من الجواب
فهو على الجملة والتفصيل | منحصر في خمسة فصول
أولها في أصله، والثاني | في فضله على مدى الأزمان
وثالث الفصول في أحكامه | وحين يستوي على أقدامه
والرابع الرد على من رده | وليس يدري شأنه وقصده
وخامس يعلم كيف صيرا | حتى غدا بين الأنام منكرا
وبعد ما فصلته فصولا | وعاد بتّ حبلها موصولا
سميتها المباحث الأصلية | عن جملة الطريقة الصوفية
فحيّ يا رب امرءاً حياها | وزكه يوماً متى زكاها

الفصل الأول : في أصله (التصوف)

1- الطريقة بحث عن تحقيق الحقيقة

واعلم بأن هذه الطريقة   بحث عن التحقيق للحقيقة

....

2- حقيقة الإنسان وأنموذجها الرباني

وهذه حقيقة الإنسان   حيث لها أنموذج رباني

وها أنا أشرح منه البعض   بقدر ما تفهمه فلترض

فهذه الحقيقة النفسية   موصولة بالحضرة القدسية

وإنما يعوقها الموضوع   ومن هنا يبتدأ الطلوع

لم يتصل بالعالم الروحاني   من عمره على الفضول عاني

ليس يرى من المعاني دان   من قلبه في عالم الأبدان

ما نالها ذو العين والفلوس   وإنما تباع بالنفوس

....

5- أصل التصوف من جهة دليل الشرع

ولنرجع الآن لباقي الفصل   إذ في تمامه ثبوت الأصل

فقادة الصوفي أهل الصفة   في زمن الرسول فاعلم وصفه

وهم ضياف الله والإسلام   وجلساء سيد الأنام

كانوا على التجريد عاملين   وعن سوى الرحمن معرضين

تخلقوا بخلق النبي   يدعون بالغداة والعشي

قد خرجوا لله عما اكتسبوا   فكل صوفي إليهم ينسب

إذن فشأن القوم ليس محدثا   بل كان أحوى فوجدناه غثا

فاسلك طريق القوم تلق يمنه   إذ الكتاب قيده والسنة

الفصل الثاني :في فضله

1- شرف علم التصوف وفضيلته

حجة من يرجح الصوفية   على سواهم حجة قوية

هم اتبع الناس لخير الناس   من سائر الأنام والأناس

تبعه العالم في الأقوال   والعابد الناسك في الأفعال

وفيهما الصوفي في السباق   لكنه قد زاد بالأخلاق

......

قد رفضوا الآثام والعيوب	وطهروا الأبدان والقلوب
وبلغوا حقيقة الإيمان	وانتهجوا مناهج الإحسان
وعلموا مراتب الوجود	كالأم والوالد والمولود
واستشعروا شيئا سوى الأبدان	يدعونه بالعالم الروحاني
ثم أمام العالم المعقول	معارف تلغز في المنقول

3- **الفصل الثالث :في أحكامه**

....

3- **في حكم اللباس**

وقد أباحوا سائر الأثواب	وتركها أقرب للصواب
إذ في لباس حلها الحساب	أيضا، وفي حرامها العقاب
والقوم ما اختاروا المرقعات	إلا لأوصاف وسوف تأت
أولها فيها اطراح الكبر	ومنعها للبرد ثم الحر
وخفة التكليف، ثم فيها	قلة طمع الطامعين فيها
وذلة النفس وتطويل العمر	والصبر ثم الاقتدا بعمر
ألا ترى لابسها كالخاشع	فهي إذن اقرب للتواضع

4- **في حكم الأكل**

الأكل فيه تركه مشروط	إلا اضطرارا قدر ما يحوط
وإن يكن فحسن وإلا	فتركه عند الجميع أولى
بل أنزلوه منزل الدواء	عند العليل بغية الشفاء
وجنبوا طعام أهل الظلم	والبغي والفساد خوف الإثم
بل أكلوا مما استبان حله	غير الذي لا يعرفون أصله
ويكرهون الأكل مرتين	في اليوم والمرة في اليومين
وفضلوا الجمع على الإفراد	فيه لأجل كثرة الأيادي
ولم يلقم بعضهم لبعض	ولم يجل بصره بل يغضي
وكرهوا البطنة للإخوان	فالبطن كالوعاء للشيطان
وأمروا فيه بفتح الباب	وأكلوا بالقصد والآداب

وفتحوا الباب لكل سار وأكلوا بالرفق والإيثار
وللطريق ظاهر وباطن تعرف منه صحة البواطن

5- في آداب الاجتماع

ظاهره الآداب والأخلاق مع كل خلق ما له خلاق
باطنه منازل الأحوال مع المقامات لذي الجلال
والأدب الظاهر للعيان دلالة الباطن في الإنسان
وهو أيضا للفقير سند وللغني زينة وسؤدد
فالقوم بالآداب حقا سادوا منه استفاد القوم ما استفادوا
والقصد من هذا الطريق الأدب في كل حال منه :هذا المذهب

...

7- الحكمة في سفرهم والمقصود به

مذهبهم في جولة البلدان زيارة الشيوخ والإخوان
ثم اقتباس العلم والآثار أو رد ظلم أو للاعتبار
أو للخمول أو لنفي الجاه أو للرسول أو لبيت الله
ولم تكن أسفارهم تنزها لكن لله بها التوجها
ولم تكن أيضا بلا استئذان للشيخ والآباء والإخوان

الفصل الرابع – في الرد على من رده

الرابع في الرد على من رده وليس يدري شأنه وقصده
هذا الطريق من أجل الطرق فافهم هديت واقتده بنطق
إن العلوم كلها المعلومة فنونها في هذه متهومة
إذ العلوم في مقام البحث وإن هذا في مقام الإرث
وأنكروه ملأ عوام لم يفهموا مقصوده فهاموا
وكل من أنكر منه شيئا فإنما ذاك لسبع أشيا
لجهله بنفسه الشريفة وكونها في أرضها خليفة
وجهله بالعالم المعقول وشغله بظاهر النقول
وسهوه عن عمل القلوب والخوض في المكروه والمندوب

والجهل بالحلال والحرام والميل عن مواهب الإلهام
واعلم بان عصبة الجهال بهائم في صورة الرجال
ومن أباح النفس ما تهواه فإنما معبوده هواه
تالله ما يجمل باللبيب جهل البعيد منه والقريب
هل ظاهر الشرع وعلم الباطن إلا كجسم فيه روح ساكن
لو عمل الناس على الإنصاف لم تر بين الناس من خلاف
واعلم رعاك الله من صديق أن الورى حادوا عن التحقيق
إذ جهلوا النفس والقلوبا وطلبوا ما لم يكن مطلوبا
واشتغلوا بعالم الأبدان فالكل ناء منهم ودان
وأنكروا ما جهلوا وزعموا أن ليس بعد الجسم شيء يفهم
وكفّروا وزندقوا وبدّعوا إذا دعاهم اللبيب الأورع
كلٌ يرى أنْ ليس فوق فهمه فهمٌ ولا علم وراء علمه
محتجبا عن رؤية المراتب علّ يسمى عالما وطالب
هيهات هذا كله تقصير يأنفه الحاذق والنحرير

الفصل الخامس :في فقراء العصر

إذا علمت كيف كان الحال في الشيخ والتلميذ ثم حالوا
فاعلم بأن أهل هذا العصر قد شغلوا بمحدثات الأمر
إذ أحدثوا بينهم اصطلاحا لم أر للدين به صلاحا
وصنفوا بينهم أحكاما أكثرها كانت لها حراما
وانتهجوا مناهج منكوسة وارتكبوا طريقة معكوسة
فهذه طريقةٌ قد درست وشجر أغصانها قد يبست
كانت إذن مواردا شريفة فاستبدلت مذاهبا سخيفة
قد أسست على صحيح العقل وأسها الآن بمحض الجهل
يدعي الذي يمشي عليها سالك وسالكوها اليوم حزب هالك
بها عاش القوم بخير عيشه فصيرت بعدهم معيشة
وكانت تضاهي الكوكب المنيرا والآن أضحت حائطا قصيرا
إذا صار لا يعلم منها إلا أكلا ورقصا وغنى وسؤلا
وكانت على الإنصاف والنصيحة فهي على الإسراف والفضيحة

تعرف بالخلق والإيثار والآن بالحقد، والإقتار
وكانت أجل غبطة وخطه والآن فهي بدعة وخلطة
كانت على مجرد الصيام والآن في مجرد الطعام
وقولنا الشيوخ والإخوان هم الذين سلفوا وبانوا
ماتوا ولما يتركوا من وارث إذ هؤلاء القوم كالبراغث
فكل ما اليوم عليه الناس من مدعين الفقر فيه باس
إذ نقضوا الأصول والأركانا وصيروه في الورى مهانا
وهدموا بنيانه المشيدا وصيروه مخملا ومخمدا
ونثروا الفروع والأصولا وجعلوا معلومها مجهولا
واحتسبوا فيها بغير حسبة صيروها ضحكة ولعبة
وجعلوها للغني مغرما وللفقير نهبة ومغنما
وافتضحوا واصطلحوا لديها فصار ما كان لها عليها
حق لمن كان عليهم منكرا إذ كل ما يبصر منهم منكرا
لو لم يكن بعض لبعض عاكس ما لقبوا بعصبة الكساكس
عار لمن لم يرض العلوما ويعلم الموجود والمعدوما
يا قاصدا علم الطريق السالف لا تقتدي بهذه الطوائف
لم يعرفوا حقيقة الطريقة فالقوم جهال على الحقيقة
يا صاح لا يفتنك الزمان فها لديك الشرح والبيان
والحق في كل الأمور أولى لو رآه الباطل لاضمحلا
هذا هو الطريق فاقصد جله فقد جمعنا لك منه جمله
وقد ذكرنا كل ما اشترطنا وها على آخره أتينا
وفقنا الله إلى التوفيق وقادنا لقادة التحقيق
الحمد لله الذي ختمنا بحمده كما به بدأنا